

شعر جنوب الجزيرة العربية في العصر الجاهلي

Southern Arabia in Pre-Islamic Poetry

إعداد: الباحث/ محمد أحمد علي فتحي إشراف

باحث دكتوراه في الأدب العربي، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا

إشراف الدكتور/ عبد الكريم أحمد مغاوري

أستاذ مساعد في كلية اللغات، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا

الملخص:

تسعى الدراسة إلى تصويب المعلومات التاريخية التي تحدثت عن الجزيرة العربية، وعن حياة الجاهليين فيها، معتمدة على الدراسة الميدانية للمكان، مستفيدة من الشعر الجاهلي، وأخذت من المصادر القديمة ما وافق شروطها، مستفيدة من المعطيات البيئية، والمرويات الشعرية من أجل إيضاح ما عزمت على إيضاحه من الحقائق المتعلقة بتلك الحياة، وذلك المكان. وتبرز الدراسة أسباب اضطراب المؤلفين في مسائل تحديد الأمكنة التي استوطنتها القبائل الجاهلية، وعاش فيها الشعراء، وتثبت أنه من الخطأ الظن بأن العرب الجاهليين كانوا يعيشون في صحراء قاحلة، وأن حياتهم يحكمها الترحال. وتبرهن الدراسة على أنّ الجاهليين تركّزوا في أقاليم غير صحراوية، كانت كافية لعيشهم، إذ إنّها تغطي مساحة أكبر من مساحة مصر، وسوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين، وتونس مجتمعة، وقد ركّزت الدراسة على جنوب الجزيرة الذي يحتلّ مساحة واسعة، تعادل مساحة بلاد الشام مجتمعة، وتمتاز بتنوع جغرافي، ونباتي، تسهل معه الحياة جدا للجاهليين، وهو إقليم تكون مسافة الانتقال فيه بين البرد والدفء لا يتجاوز 50 كيلاً، وتصحّح الدراسة مسمى اليمن الذي درج القدماء على إطلاقه على كل ما كان جنوب مكة المكرمة، وظنّ المتأخرون أنه اليمن الحالية، فبنوا على ذلك مؤلفاتهم، وقد اعتمدت الدراسة في تصحيح نسبة اليمن على أكثر الأخبار موثوقية، وعلى ما ثبت عند القدماء والمحدثين من مساكن القبائل الجاهلية التي كان يطلق عليهم أهل اليمن في ذلك الوقت، وتصحّح الدراسة المعلومات المتناقضة عن إقليم نجد، معتمدة على ما ورد في الشعر الجاهلي، والمصادر القديمة، من ذكر لحالات الطقس، وأنواع النباتات، والأسماء الواردة في الشعر الجاهلي، وأعدت الدراسة القبائل الجاهلية إلى مواطنها الحقيقية، والشعراء الجاهليين إلى مساكنهم الصحيحة، وكذلك المعارك، والأعلام. ثم تحدثت الدراسة عن أساليب الحياة التي عاشها الجاهليون في جنوب الجزيرة، وأبرز المعالم الفنية في شعر جنوب الجزيرة في العصر الجاهلي.

الكلمات المفتاحية: جنوب الجزيرة في العصر الجاهلي، نجد، جنوب الجزيرة، اليمن، لم يعيش العرب في الصحراء

Southern Arabia in Pre-Islamic Poetry

Abstract:

The study took upon itself the task of correcting the historical information that spoke about the Arabian Peninsula, and about the life of the pre-Islamic people in it, relying on the field study of the place, and the mental analysis of the antiquities, benefiting from the pre-Islamic poetry, and took from the ancient sources what agreed with its conditions, and approached objectivity in the transmission of pre-Islamic poetry, And his criticism, and the study benefited from environmental data, geographical features, and poetic narrations in order to clarify what it intended to clarify from the facts related to that life and that place. The study showed the reasons for the turmoil of the ancient authors regarding the pre-Islamic period regarding the issues of determining the places settled by the pre-Islamic tribes, and where the poets lived. On the hunt, mixed with travel. The study proved that the pre-Islamic people were concentrated in non-desert regions that were sufficient for their living, as these livable regions cover an area larger than the area of Egypt, Syria, Jordan, Lebanon, Palestine, and Tunisia combined, and the study focused on the south of the island, which occupies a large area. It is equivalent to the area of the Levant combined, and is characterized by geographical and vegetation diversity, with which life is very easy for the pre-Islamic people, and it is a region in which the distance of movement between cold and warmth does not exceed 50 km, and the study corrects the name of Yemen, which the ancients used to call everything that was south of Makkah Al-Mukarramah, And the latecomers thought that it was the current Yemen, so they built their writings on that, and the study relied on correcting the percentage of Yemen on the most reliable news, and on what was proven by the ancients and the moderns from the dwellings of the pre-Islamic tribes that were called the people of Yemen at that time, and the study corrects the information transmitted about the region of Najd Based on what was mentioned in pre-Islamic poetry and ancient sources, mentioning weather conditions, types of plants, and names mentioned in pre-Islamic poetry. Then the study talked about the lifestyles that the pre-Islamic people lived in the south of the island, and the most prominent artistic features in the poetry of the south of the island in the pre-Islamic era.

Keywords: the south of the island in the pre-Islamic era, Najd, the south of the island, Yemen, the Arabs did not live in the desert.

1. المقدمة

اضطرب المؤرخون، والنقاد اضطراباً شديداً في مسألة تحديد مساكن القبائل العربية في العصر الجاهلي، وفي معرفة الطبيعة البيئية التي عاش فيها الجاهليون، فإذا بهم يخرجون قبائل الجزيرة من ديارها الأصلية، دون أدلة علمية واضحة. وبناء على هذا التصور الخاطئ تم شرح الشعر الجاهلي، استناداً إلى تلك المعلومات الخاطئة، فجاءت الشروحات مثقلة بأخطاء تلك المعلومات غير الصحيحة. فقد شرح كثير من شراح الشعر الجاهلي ذلك الشعر على أساس أنه شعر بيئة صحراوية رملية قاحلة، شظف فيها العيش، وتسيّد أراضيها الجوع، وعاش فيها الجاهلي عيشة الفقراء، في بيئة فقيرة مهلكة. وتثبتت هذه الدراسة أنّ ذلك غير صحيح، معتمدة على الدراسة الميدانية للمكان، والتحليل العقلي للأثار المنقولة، مستفيدة من الشعر الجاهلي، وأخذت من المصادر القديمة ما وافق شروطها. ولقد اجتمعت ظروف مختلفة أدت إلى اضطراب المؤلفين القدماء في شأن الجاهلية في مسائل تحديد الأمكنة التي استوطنتها القبائل الجاهلية، وعاش فيها الشعراء، منها أنّ تدوين تاريخ القبائل الجاهلية تأخر عشرات السنين، قبل أن يبدأ على استحياء في عهد معاوية بن أبي سفيان. ومنها أنّ القدماء لم يجدوا تاريخاً مدوناً يمكن البناء عليه، فكانت المعلومات التي وصلتهم عن العصر الجاهلي خاضعة للذاكرة الفردية، وللأمانة الشخصية. ومنها أنّ مدوني تلك الأخبار عن العصر الجاهلي كانوا يعيشون بعيداً عن مواطن تلك القبائل، فهم إما في الشام، أو في العراق، أو في أقاصي المغرب والأندلس، على بعد المسافة، وضعف وسائل الاتصال. ومنها أنّ الجزيرة العربية قد انزوت في الظلّ تماماً منذ أن انتقلت الخلافة إلى العراق، ثم إلى بلاد الشام. على أنّ الباحث في الشأن الجاهلي سيجد أنّ الحياة فيه تعتمد على مقومات معيشية واضحة، وهي مقومات تحتاج إلى شروط بيئية معينة، وتلك الشروط يمكن من خلالها قبول ما زعمه الأقدمون، أو رفضه. وستثبت الدراسة أنّه من الخطأ القول بأن العرب كانوا يعيشون في صحراء، إذ إنّ الحقيقة تبرز أنّ 53% من مساحة الجزيرة لم يكن صحراوياً، وهي مساحة أكبر من مساحة مصر، وسوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين، وتونس مجتمعة، وهذه المساحة هي التي تواجد فيها الجاهليون. والدراسة تثبت أنّ القبائل العربية في العصر الجاهلي كانت مستقرة في أقاليم بعينها، لا تخرج منها إلى غيرها، يساعدها في ذلك أنّ تلك الأقاليم كانت تفي بحاجتها من مقومات الحياة.

1.1. مشكلة الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة، التي وقع فيها الباحثون في مسألة نسبة الشعر الجاهلي إلى غير بيئته الحقيقية، والقبائل إلى غير مواطنها، فأخذت على عاتقها مهمة الإجابة عن أسئلة مشكلة الدراسة كالتالي:

1. كيف أدت مشكلات ضعف التدوين، وبعده الاتصال بالمؤرخين، وجامعي الشعر الجاهلي إلى الوقوع في خطأ نسبة الشعر الجاهلي، والقبائل إلى غير بيئتها؟
2. كيف غفل الباحثون عن العلامات الشعرية التي حملها الشعر الجاهلي، دليلاً على بيئته؟
3. كيف يساعد استنطاق الباحثين للشعر الجاهلي على معرفة الأقاليم التي احتضنت القبائل الجاهلية؟

2.1. أهداف الدراسة:

تحاول هذه الدراسة تحقيق نتائج علمية لعل من أهمها:

1. تصحيح الأخطاء التي ارتكبتها الدراسات في تحديد الأقاليم التي عاش فيها شعراء العصر الجاهلي.
2. ربط الشعر الجاهلي بالبيئة الجغرافية التي نشأ فيها.
3. بيان دور بيئة جنوب الجزيرة العربية في حياة الجاهليين.

3.1. أهمية الدراسة:

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تصحح المفاهيم الخاطئة في الدراسات السابقة، فيما يتعلق بمكان، وأساليب حياة الجاهليين، ونوع البيئة التي عاشوا فيها، ومن كونها ستعتمد على الشعر الجاهلي، الذي هو ديوان العرب، في التحليل، والتفسير، ونسبة الإنسان إلى المكان، دون أن تتكل كلياً على ما تناقلته الكتب السابقة.

تمهيد: هل عاش جاهليو الجزيرة العربية في صحراء؟

هذا سؤال في غاية الأهمية، تتضح من خلال الإجابة عليه مفاهيم مختلفة عن بيئة الشعر الجاهلي، ويترتب على تأكيده أو نفيه معرفة النتائج التي تمخّضت عنها المؤلفات التي أهملت الإجابة على هذا السؤال من جهة أخرى. لقد أثرت المعلومات الخاطئة المتعلقة بتصوّر حياة العرب في الجاهلية في تلقي الشعر الجاهلي، ومنعت لزم طویل الاقتراب من الحقائق عند محاولة شرحهم لذلك الشعر. فقد ظنّ القدماء ومن تبعهم من اللاحقين أنّ الجاهلي عاش في صحراء قاحلة، معتمداً على الرعي، والصيد، بينما يجد الباحث في أمر جزيرة العرب أنّ المساحات غير الصحراوية أكبر من مساحة مصر، وسوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين، وتونس مجتمعة، وهي إما سلاسل جبلية مطيرة، أو هضاب، أو سهول ساحلية فسيحة، فيها من مقومات الحياة ما يجعل الحياة المستقرة ممكنة. وأنّ أحد أقلّ الأقاليم في الجزيرة من حيث الغنى الطبيعي -اليمامة- كان يزرع أنواع الحبوب في العصر الجاهلي ما يصدر إلى الأقاليم الأخرى، وقصة ثمامة بن أثال مع أهل مكة مشهورة، وهي قصة تنسف فكرة أنّ الجاهليين كانوا يأنفون من العمل في الزراعة، لقبيلة بني حنيفة ذات الشرف، والذكر تمارس الزراعة، بل وتتخذها سلاحاً عند الحاجة - كما حدث في قصة ثمامة بن أثال. والقصة تثبت أنّ الجاهليين كانوا يستقرون في الأقاليم التي تحقق لهم مقومات الاستقرار. وتنفي تماماً عيش الجاهلي في صحراء قاحلة، فالحبوب لا تزرع بهذه الكثرة التي تحقق الأمن الغذائي لأهلها، ثم تجعلها تجارة تصدّر إلى الأقاليم الأخرى في بيئة صحراوية قاحلة. وإذا كانت الحبوب تزرع بهذه الكمية الكبيرة في وسط الجزيرة، فإنّ الأقاليم الأخرى التي اشتهرت بكثرة أمطارها ستكون أقدر على إنتاج الكثير من أنواع المزروعات. وليس معروفاً لم انصبّ تركيز المؤلفين على المساحة الصحراوية وهي الأصغر، فجعلوها مكاناً لعيش الجاهلي، وانصرفوا عن المساحة الصالحة للعيش وهي الأكبر؟! إن المتنبّع للأماكن التي اختارتها القبائل العربية في العصر الجاهلي، سيجد أنّ تلك القبائل تركّزت في الأقاليم غير الصحراوية، وهي أقاليم واسعة المساحة، وذات خصائص بيئية منتجة لما يحتاجه إنسان ذلك العصر. وكيف لبشر أن يعيش معظم أيام السنة في الجذب والقحط، وهو يقوم في معيشتها أساساً على الزراعة أو الرعي، وهما مهنتان لا تقومان في بلد قحط وجذب! إنّ من يبحث بتنبّت يتضح له أنّ القبائل الجاهلية قد ارتبطت بأماكن بعينها لم تغيرها، بل إنّ كثيراً من تلك القبائل بقيت في تلك الأماكن إلى اليوم، فمدحج في نجران منذ الجاهلية إلى اليوم، وبنو حنيفة في اليمامة، وثقيف في الطائف، وكنانة في تهامة جنوب مكة، وبنو عامر في بيشة، وطيء في الجبلين، وعنز في جرش وما حولها، والأزد في السراة، والأوس والخزرج في المدينة، وعبس وذبيان في القصيم،

ومثل ذلك قبائل الجزيرة كلها، لم يشدَّ عن هذه القاعدة سوى بضع قبائل كانت ظروفها تحتمُّ عليها الانتقال، وهي ظروف ليس منها طلب المرعى غالباً، فمن أين جاء المؤلفون بنظريات ارتحال الجاهليين الذي لا يتوقف! وأما الترحال في أثر المطر فإنه يكون داخل الإقليم الواحد. لهذا كله يرى الباحث أن عرب الجاهلية قد اختاروا لسكناهم أليق أقاليم الجزيرة بالعيش، وتركزوا في الأقاليم التي تساعدهم على الحياة، ومن المنطقي أن يكون تركّزهم في المناطق بحسب خصوصيتها، لأنَّ ذلك يعني وجود الصيد لمن يريده، ووجود المراعي لمن يقتني الماشية، وهكذا.

1 - جنوب الجزيرة العربية: الجغرافيا والمقومات

يحتلّ جنوب الجزيرة العربية مساحة واسعة، تضم ما يعرف في وقتنا هذا بمناطق عسير، وجازان ونجران، والباحة، وهذه المناطق تبدأ من حدود الجمهورية اليمنية جنوباً، إلى بيشة وما تبعها من مراكز شمالاً، وهي مساحة تعادل مساحة سوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين مجتمعة، وهذه المنطقة تمتاز بتنوع جغرافي، وتباين نباتي، تسهل معه الحياة جداً لمن عاش عيشة الجاهليين. وهذا الإقليم يضم طبيعتين جغرافيتين متناقضتين، ومتجاورتين في الوقت نفسه، إذ يتكوّن الجزء الشرقيّ منه من جبال شاهقة الارتفاع، يصل ارتفاعها إلى ما يزيد على 3600 متر، بينما يتكوّن الجزء الغربي من سهول ساحلية في غربه، وسفوح منبسطة في شرقه، وهذان الجزءان ملتصقان تماماً، بحيث تتم عملية الانتقال من نهاية قسمة الشرقي الذي يسمى بالسراة، حين تصل درجات الحرارة في الشتاء إلى الصفر، ليكون الوصول إلى بداية مناطق الدفء في السواحل واعتدالها، بعد قطع مسافة لا تتجاوز 50 كيلاً، ومثلها حين تشتدّ حرارة الصيف في السواحل، يمكنه الانتقال إلى الطقس المعتدل في السراة قاطعاً المسافة ذاتها. وهذا هو الانتقال الذي يمكن الحديث عنه، وليس الانتقال الذي ظنّه بعض المؤلفين، حيث إنّ الانتقال من إقليم إلى إقليم، يتمّ باصطحاب أنواع المواشي التي لا يمكنها السير مسافات بعيدة، إلا إن كان سيراً بطيئاً يحتاج معه السائر إلى أشهر، على أن تكون المسافة المقطوعة غنيّة بالعشب والماء، ومن البدهي أنه لو توفر العشب والماء لانتقلت الحاجة إلى الانتقال. وعلى هذا يرى الباحث أنّ التنقل الجاهلي يحكمه أمران: الأول: أن يكون ضمن حدود جغرافية لا يتجاوز السير فيها الأيام القليلة، لأنّ المسافات الطويلة تقتل الماشية التي يكون الانتقال من أجل حمايتها من الهلاك. والثاني: أن يكون قريباً من حدود القبيلة، فإنّ الدخول إلى حِمى القبائل الأخرى يؤدي إلى الحرب.

2: نجدُ جنوب الجزيرة، الموقع والخصائص:

تحدد الدراسة موضع الإقليم الذي سمّي في الجاهلية نجداً، بناء على معطيات نقلية، وعقلية واضحة، فأما النقل فيقول البكري: "وأعراض نجد هي بيشة وترج وتباله والمراعة ورنية" (البكري، 1403هـ، ص9) وهذه البلدات ما زالت قائمة إلى اليوم في جنوب الجزيرة. ويقول ابن خلدون: "بلاد نجد أعلاها في الجنوب جرش وتباله إلى عكاظ من الشمال" (ابن خلدون، 1988م، ص58) وجرش في حميس مشيط، وتباله قرب بيشة، والطائف معروف، وقد وسع البكري الدائرة إلى أن أوصلها العراق، إذ يقول: "وأما نجد، فما بين جرش إلى سواد الكوفة" (البكري، دت، ص13) وعلى هذا فإنّ الباحث يجد أنّ نجداً المذكورة في الشعر الجاهلي، إما أنّها تعني المنطقة الممتدة ما بين جنوب الطائف إلى جنوب عسير، فتكون هي "نجد" دون ما سواها من الأقاليم، وإما أنّها تعني مساحة أكبر من ذلك، ولكنها تضمّ جنوب الجزيرة. ويقول أيضاً: "تربة: من مخاليف مكة النجدية وهي الطائف وقرن المنازل ونجران وعكاظ وتربة وتباله والهجيرة وكتنة وجرش والشراء" (ابن خلدون، 1988م، ص307).

قال الباحث: وهذه الأماكن التي ذكرها البكري هنا تقع كلها في جنوب الجزيرة. ويقول ابن خرداذبة في المسالك والممالك: "مخاليف مكة بنجد الطائف ونجران" (ابن خرداذبة، 1988، ص133). وقال البكري: "تثليث واد بنجد، وهو على يمين من جرش، في شرفها إلى الجنوب، وعلى ثلاث مراحل ونصف من نجران، إلى ناحية الشمال" (البكري، 1403هـ، ص305) وبناء على ما تقدم فإن الباحث يطمئن إلى أنّ المنطقة الواقعة بين الطائف شمالاً، وجازان جنوباً، وتضم نجران وبيشة وما حولهما، هي ما عرف في الجاهلية بنجد، فإن لم تكن هي النجد وحدها، فهي على الأقل تمثل القسم الأكبر منه، وهي منطقة منبسطة خصيبة، كثيرة الأمطار قياساً بأقاليم الجزيرة العربية الأخرى، سكنتها القبائل العربية في العصر الجاهلي. ويؤيد اختيار الباحث هذا ما ورد في الشعر الجاهلي، إذ يرتبط فيه مسمى نجد بحواضر بعينها، تقع في جنوب الجزيرة، ومنها نجران، وتثليث، ووادي جاش، التي ذكرها طرفة بن العبد البكري حين قال:

بتثليث أو نجران أو حيث نلتقي من النجد في قيعان جاش مسائله (الشنتمري، 2000م، ص126)

ويقول الصمة بن عبد الله القشيري: أحنّ إلى نجد وإني لياثس طوال الليالي من رجوع إلى نجد (الجبر، 2003م، ص83)

وبنو قشير جنوبيون، يقول خالد الجبر في كتابه (الصمة بن عبد الله القشيري حياته وشعره) "توسطت بلاد القشيريين بلاد بني كعب على ضفاف أودية غزيرة المياه، مثل بيشة، ورنية" (الجبر، 2003م، ص17) ويذكر طرفة بعض خصائص النجد، فإليه يلتجئ الناس في الصيف، ولو كان جافاً حاراً ما التجأوا إليه، يقول طرفة:

حيثما قاطوا بنجدٍ وشئوا حول ذات الحاذ من تبيي وُقُر

كبنات المخز يمدن كما أنبت الصيف عساليخ الخضر (ناصر الدين، 2002م، ص40).

فقوله قاطوا بنجد يعني أنهم يلتجئون إلى نجد في الصيف، فلا بدّ أنّ تكون أجواؤه معتدلة في الصيف، وهذا لا ينطبق إلا على جبال السراة، وعساليخ الخضر الأغصان الجديدة، اللينة، وكونها تطلع في الصيف فهذا يدلّ على أنّ نجداً الواردة في الأبيات ذات أجواء معتدلة لا تحرق تلك الأغصان الغضة، وكلّ ذلك لا يكون إلا في جنوب الجزيرة.

3: القبائل التي استوطنت جنوب الجزيرة العربية في العصر الجاهلي

يتمتع جنوب الجزيرة العربية بمقومات بيئية لا مثيل لها في جزيرة العرب، وتلك المقومات تناسب تماماً أسلوب الحياة الجاهلية، ففي جنوب الجزيرة تتجاوز بينتان متكاملتان تماماً، تمدّانه بكل ما يحتاجه من المقومات الحياة، وقد جاء في موقع الجمعية الجغرافية السعودية: "وتسقط الأمطار على جنوب غرب المملكة في جميع فصول السنة تقريباً، وهي تتباين في كمياتها من فصل إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، تبعاً لارتفاع الجبال وامتدادها" (الجمعية الجغرافية السعودية، د.ت) وقد كان لتفرّد هذا الإقليم بغزارة أمطاره، واتساع مساحته، وتجاور أعالي الجبال والسهول الساحلية أثره في تركّز كثير من القبائل الجاهلية فيه.

قبائل جنوب الجزيرة العربية في العصر الجاهلي

ساهمت المقومات البيئية المناسبة لأسلوب الحياة الجاهلية في تركّز الكثير من القبائل العربية في هذا الإقليم الخصيب ومنها:

1- الأزد: استوطنت قبائل الأزد ما بين الباحة وأبها، ومن قبائل الأزد عسير - وقيل من عنز بن وائل - وغامد، وزهران وخزاعة، وحوالة، والبقوم، وبنو عمرو وبنو شهر، وبنو الأحمر، وبنو الأسمر، والدواسر، ومازن، وبارق، وأمع، وبلقرن.

2 - عنز بن وائل، وتغلب بن وائل، وبكر بن وائل: فأما عنز بن وائل فإنه لا خلاف على في أنّ مساكنهم في جنوب الجزيرة العربية، وهم إخوة بكر وتغلب، قال الدار قطني: "أما عنز، فهو عنز بن وائل، أخو بكر وتغلب" (الدار قطني، 1986م، ص662). وأما بكر وتغلب فقد قال الصحاري: (كانت ربيعة قبل انتشارها وتفرقتها في البلاد يسكنون بطن عرق وما والاها من البلدان فلما كثرت انبسطت فصارت فيما بين بيشة وتباله والدفينة وبطن الجريب) (الصحاري، 2006م، ص176) ومن الأدلة على أنّ مساكن بكر وتغلب كانت في جنوب الجزيرة العربية أنّه لا خلاف بين المؤرخين في استقرار إخوتهم لأبيهم وأمهم عنز بن وائل في جنوب الجزيرة العربية. ومن الأدلة أنّ شعراء بكر وتغلب ذكروا مواضع في الجنوب ولم يذكروا شيئاً من البحرين، فالحارث بن حلزة ذكر ثهلان، والأبلاء، والصفاح، والشعبتين، والصاقب، والعقيق، وملحة، وقطنا، والحبس، ولم يذكر البحرين في ديوانه كلّه إلا مرة واحدة، وطرفة بن العبد ذكر نجران، وتثليث، وجاش، وتباله، والدكادك، وثهدم وكلّها مواضع جنوبية، بينما لا يذكر البحرين ولو مرة واحدة. ومن الأدلة أنّ أغلب حروبهم كانت هناك، فقد خاضت ربيعة معارك كثيرة، مع قبائل جنوبية، ومعلوم أنّ المعارك تكون بين المتجاورين، ومن أشهر تلك المعارك التي خاضتها تغلب مع جيرانها: - يوم السلان: وفي الجامع: "السلان واد فيه ماء وحلفاء وكان فيه يوم بين حمير ومذحج وهمدان وبين ربيعة ومضر وكانت هذه القبائل من اليمن بالسلان، وكانت نزار على خزاز، وهو جبل بزاء السلان، وهو ممّا بين الحجاز واليمن" (الحمودي، 1995م، ص235) وهذا نصّ واضح في موضع خزاز المشهور بواحد من أيام العرب. ويؤكد الحارث بن حلزة أنّ قتلى بكر وتغلب في جنوبي الجزيرة كثيرون، فهو يقول محدّراً التغلبيين من تذكر قتلى الفريقين ما بين ملحّة فالصاقب، وهذا دليل على أنّ المعارك كانت في هذين الموضعين:

إِن نَبَسْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةَ فَالْصَا قِبَ فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ (العظمة، 1994م، ص69) قال

صاحب أطلس أسماء الأماكن "ملحة في بيشة" (الراشد، 2012م، ص3) قال الباحث: وملحة تقع شرقي خميس مشيط، وتبعد عنها مسافة 80 كيلا في خطّ مستقيم، وبينها وبين طريب مسافة 50 كيلا تقريبا، والصاقب ما زال يعرف باسمه إلى اليوم، وهو يقع شمال بيشة، ومن أوضح الأدلة تلك الأبيات من الرجز التي قالها كليب التغلبي، يجير فيها عصفورة باضت في حماه، فيذكر أنّه حمى حماه من حمير ومذحج، والقبيلتان جنوبيتان لا خلاف في ذلك، ولا يخشى المرء في الجاهلية على أملاك قبيلته إلا من جيرانه:

يا طيرة بين نبات أخضر جاءت عليها ناقة بمنكر

إنك في حمى كليب الأزهر حميته من مذحج وحمير

فكيف لا أمنعه من معشري (شيخو، 1991م، ص156)

فلو لم تكن تغلب مجاورة لمذحج وحمير لما كان لكليب أن يقول إنه منعه منهما، وكان عليه أن يقول إنه منعه من القبائل الأخرى التي قد تكون مجاورة له.

3 - خثعم: لا خلاف في جنوبية قبيلة خثعم، وما زالت تلك القبيلة معروفة في بلادها التي كانت تقيم بها في الجاهلية، وتقع في منطقة عسير، مركز خثعم التابع لمحافظة بلقرن، وقال أنس بن مدرك الخثعمي:

تباله والعرضان ترج وبيشة وقومي تيم اللات والاسم خثعم (الحموي، 1995م، ص21)

4 - مذحج: قال الهمداني: "وقال طرفة فجمع طرفا من بلد مذحج في بيت:

أتعرف رسم الدار قفرا منازله كجفن اليماني زخرف الوشي مائله

بتثليث أو نجران أو حيث تلتقي من النجد في قيعان جاش مسايه" (الهمداني، 1884م، ص222)

5 - عامر بن صعصعة: في بيشة وما حولها، ومن الأدلة قال البكري يحدّد مكان فيف الريح: "وفيف الرّيح: بين ديار عامر بن صعصعة وديار مذحج وخثعم" (البكري، 1403هـ، ص38) وحميد بن ثور يذكر ديار بني عامر على أنها مجاورة لنهد وخثعم، والقبيلتان جنوبيتان باتفاق، يقول حميد بن ثور: وقولا إذا جاوزتما حيّ عامر وجاوزتما الحيين نهدًا وخثعما (الدينوري، 1423هـ، ص378)

6 - تميم: استوطنت بعض قبائلها تثليث وما حولها في جنوب الجزيرة، حيث يصرّح سلامة بن جندل التميمي بذلك: سأهدي وإن كنا بتثليث مدحة إليك وإن حلت ببيوتك لعلعا" (الجاحظ، 1423هـ، ص378) قال ياقوت: "فدلّ قوله أن تثليث من ديار بني تميم" (البكري، 1413هـ، ص304).

8 - كنانة: كانت ديارهم ما بين مكة وجزان، وذكر البلادي أنّ ديارهم في الجاهلية "كانت تمتد من وراء حلي في الجنوب إلى وادي الصفراء في الشمال" (البلادي، 1980م، ص48) وحلي تقع في جنوب الجزيرة على ساحل البحر الأحمر، جنوب مدينة القنفذة.

9 - نهد: قال جواد علي: "أما نهد فقد سكن أكبر بطونها في منطقة نجران" (علي، جواد، 2001م، ص21) ويقول الهمداني: "بلد بني نهد: طريب ومصابة من ذوات القصص وكتنة، وأراك، واد فيه أراك، وتثليث" (الهمداني، 1884م، ص116).

10 - كندة مملكة كانت عاصمتها الفاو، وتقع الفاو جنوب وادي الدواسر، وشمال نجران.

11 - بجيلة: قال عمر كحالة: " كانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في سروات اليمن والحجاز إلى تباله" (كحالة، 1994م، ص63) وقال الياسين: "قبيلة بجيلة من قبائل العرب القحطانية اليمانية ... وكان موطنهم مع إخوتهم خثعم في سروات اليمن والحجاز" (الياسين، 1426هـ، ص21).

14 - **جنب:** من مذبح الجنوبية، قاتلت جنب مع تغلب في حرب البسوس، قال العمري: "ومنهم معاوية الخير الجنبى صاحب لواء مذبح في حرب بني وائل، وكان مع تغلب" (العمري، 1423هـ، ص261). وهذا يؤكد أنّ حرب البسوس كانت في الجنوب، وفي جنب نزل المهلهل بعد انتهاء حروب البسوس، وقيل عاد من أجل البقاء إلى جوار قبر أخيه في جنوب الجزيرة.

15 - **زبيد:** قبيلة الفارس المشهور عمرو بن معدي كرب. قال البكري: "وتثليث لبني زبيد، وهم فيها إلى اليوم" (البكري، 1403هـ، ص305).

16 - **أسد:** سكنوا مع إختهم كنانة في مكة وجنوبها، قال ابن عبد البر: "وولد خزيمه كنانة ... وأسدًا والهون" (ابن عبد البر، 1985م، ص50). وقال الفاسي: "وممن ولي الكعبة من مضر أسد بن خزيمه." (الفاسي، 2000م، ص35). وقال البلادي: "حبي: موضع بتهامة كان لبني أسد، وكنانة" (البلادي، 1982م، ص404).

والمنطق يؤكد سكناهم في جنوب الجزيرة، قبل القصيم، فقد ورد أنّ امرأ القيس حين أراد الانتقام من بني أسد، هاجم ديارهم فقتل في بني كنانة وهو يظنهم بني أسد، وامرؤ القيس - لا شك - يعلم أين يسكن بنو أسد. كذلك تذكر المصادر أنّ امرأ القيس استجد بقبيلة الأزدي فقالوا له: إخواننا وجيراننا، وقولهم جيراننا يؤكد أنّ بني أسد جنوبيون.

17 - **عدوان:** سكنوا سراة عدوان التي تقع جنوب الطائف، قال الزمخشري: " أول السراوات سراة ثقيف، ثم سراة فهم وعدوان، ثم سراة الأزدي" (الحمودي، 1995م، ص204). ومن ديارهم بقران - مازال يعرف باسمه إلى اليوم جنوب الطائف - قال ذو الإصبع العدواني:

جلبنا الخيل من بقران قبا ... تجوب الأرض فجأ بعد فجح (شيخو، 1991م، ص625).

18 - **هذيل:** امتدت ديارهم من جبل غزوان في الطائف، إلى مكة المكرمة، ومنازلهم في السراة مجاورة لفهم، سكنوا ما يسمى الآن بشفا هذيل، وهي جبال مطلّة على تهامة، وتقع جنوب الطائف بحوالي 25 كيلا. ويقول البلادي عند الحديث عن دفاق: "واد لهذيل، يسيل من السراة قرب شفا بني سفيان ثم ينحدر غربا مع ميل تدريجي إلى الشمال حتى يصبّ في ملكان بعد ضيم على 32 كيلا جنوب مكة" (البلادي، 1982م، ص619). قال الباحث: والشاقة الشمالية جنوب مكة، وبينهما مسافة 200 كيل تقريبا.

19 - **فهم:** فهم بن عمرو بن قيس عيلان، قبيلة جاهلية كانت تسكن جنوب مكة المكرمة، وهم إخوة عدوان. قال عاتق البلادي: "حثن: واد كبير لفهم، يأخذ من شفا بني سفيان فيدفع في صدر يللم" (البلادي، 1982م، ص407). قال الباحث: يللم ميقات أهل اليمن، وهو يقع جنوب مكة، وبينهما ما يقارب 70 كيلا. ومن أشهر رجال فهم تابط شرا، الفارس الشاعر الجاهلي.

4 - الشعر في جنوب الجزيرة العربية في العصر الجاهلي

أ - شعراء جنوب الجزيرة في العصر الجاهلي: يعدّ الشعر أرقى أنواع الفنون في العصر الجاهلي، من خلاله استطاع الجاهليون التعبير عن أفكارهم، وصياغة مواقفهم من الحياة، ورؤيتهم للأحداث، من خلال ذلك الإبداع القولي المتميز.

والشعر الجاهلي يشكّل ثروة علمية هائلة، تطلع الباحث على صورة المجتمع العربيّ في ذلك العصر، وستتحدث هذه الدراسة عن الشعراء الجاهليين الذين عاشوا حياتهم، أو شطرا منها في جنوب الجزيرة، على اعتبار أنّ بعض الشعراء ارتحلوا من جنوب الجزيرة بارتحال قبائلهم، وبعضهم أجبرتهم الحروب على الانتقال.

1 - **امرؤ القيس بن حجر**: هو امرؤ القيس بن حجر، أشهر الشعراء الجاهليين، شاعر جنوبي، تدلّ على ذلك أمور منها: أنّ عاصمة مملكة كندة هي مدينة الفاو، وهي مدينة جنوبية ما زالت آثارها باقية حتى الساعة. ومنها ذكر الكلبي أنّ امرؤ القيس أقبل برياياته (ابن كثير، 2003م، ص270) يريد قتال بني أسد حين قتلوا أباه، فمر بتبالة وبها ذو الخصة - وهو صنم - وكانت العرب تستقسم عنده، فاستقسم" (ابن الأثير، 1997م، ص466). قال الباحث: وتبالة بلدة تاريخية تقع في جنوب الجزيرة العربية. ومنها ما جاء في الكامل في التاريخ: "ومضى إلى أزد شنوءة يستنصرهم، فأبوا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيراننا" (البلادي، 1928م، ص613) ومنها ما ورد في أبيات امرئ القيس من ذكر لمواضع جنوبية، كالدخول وحومل، قال البلادي: "والدخول وحومل مكانان من رنية معروفان" (البكري/ 1403هـ، ص305).

2 - **ليبيد بن ربيعة**: من بني عامر بن صعصعة، عاش مع قومه في محافظة بيشة. وصرّح ليبيد بذكر مواضع جنوبية منها تحتم، قال البكري: "تحتم بفتح أوله، وإسكان ثانيه، وكسر التاء الثانية: بلد باليمن، قال ليبيد: وهل يشناق مثلك من ديار ... دوارس بين تحتم فالخلال" (الصمد، 1998م، ص131).

3 - **النابغة الجعدي**: أحد بني عامر بن صعصعة، وقد ذكر منازل قومه في بيشة وما حولها فقال:

جلبنا من الأكوار والسي والقفا وبيشة جيشاً ذا زوائد جحفا (الصمد، 1998م، ص180).

وصرّح النابغة بأنّ من ديار قومه تتليث فقال: جلبنا الخيل من تتليث حتى أتينا على أواراة فالعدان (ناصر الدين، 2002م، ص126)

4 - **طرفة بن العبد البكري**: من بني بكر بن وائل، وعلى الرغم من أنّ المؤرخين نسبوه إلى البحرين، إلا أنّ المدقق في ديوانه يجد في شعره ما يدلّ بوضوح على أنّه عاش في جنوب الجزيرة العربية، لا في البحرين التي لم يذكرها أبداً:

أتعرف رسم الدار قفرا منزله كجفن اليماني زخرف الوشي مائله

بتتليث أو نجران أو حيث تلتقي من النجد في قيعان جاش مسايله (ناصر الدين، 2002م، ص160)

وقوله يذكر تبالة، ما زالت تحتفظ باسمها إلى اليوم: رأى منظرا منها بوادي تبالة فكان عليه الزاد كالمقر أو أمر (الجاحظ، 1433هـ، ص210).

5 - **أوس بن حجر**: صرّح أوس بأنّه من سكّان تتليث، وتتليث في جنوب الجزيرة:

سأهدي وإن كنا بتتليث مدحة إليك وإن حلت ديارك لعلعا (الهمداني، 1884هـ، ص123).

6 - المهلهل بن ربيعة: أخو كليب، سكن مع قومه في جنوب الجزيرة، حتى شنتهم حرب البسوس، ومن المواضع الجنوبية التي يذكرها المهلهل الذنائب فيقول:

فإن يك بالذنائب طال ليلى فقد أبكي من الليل القصير (ابن عبد الحق، 1412هـ، ص756)

وقال ابن عبد الحق: "وسوق الذنائب: قرية دون زبيد من أرض اليمن وبه قبر كليب وائل" (حرب، طلال، دبت، ص65). وهناك قرية تسمى زبيد قريبة من المظيلف التي تقع إلى الجنوب من مكة المكرمة، فإذا أضاف الباحث إلى ذلك ما ورد من ذكر لمواضع جنوبية كتهامة في قول المهلهل: عمرت دارنا تهامة في الدهر وفيها بنو معد حلولا (حرب، طلال، دبت، ص43)

وذكر وادي الأحص: وادي الأحص لقد سفاك من العدى فيض الدموع بأهله الدعس (البكري، 1403هـ، ص380). جاء قصّة مقتل كليب: "ثم مرّوا على الأحص، فأراد جساس وقومه النزول عليه، فامتنع كليب قصدا للمخالفة. ثم مرّوا ببطن الجريب" فقد ذكر ياقوت الأحص مقرونا ببطن الجريب، وقد ورد بطن الجريب مقترنا براكس في الشعر الجاهلي، وهذا يعني أنهما متقاربان، وراكس جنوبي، قال ياقوت: "وقال ثعلبة بن غيلان يذكر خروج إيباد من تهامة ونفي العرب إياها: تحنّ إلى أرض المغمس ناقتي ومن دونها ظهر الجريب وراكس (الهمداني، 1884م، ص118) وراكس جنوبي قال الهمداني: "والذي يصالي جنب من ديار عنز الرّفيد والغوص ... والراكس" (حرب، دبت، ص89) وقال المهلهل: أضحت منازل بالسّلان قد درست تبكي كليباً ولم تفرع أقاصيه (ابن عبد الحق، 1412هـ، ص726) خقال ابن عبد الحق: "السّلان بضم أوله، وتشديد ثانيه: هي أرض تهامة مما يلي اليمن، بها يوم للعرب" (البستاني، 1979م، ص24).

7 - عامر بن الطفيل: قُتل والده في بيشة، في وادي هرجاب، وفيه يقول: ألا إنّ خير النّاس رسلاً ونجدةً بهرجاب لم تحبس عليه الركائب (التتوخي، 1978م، ص137) دعا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فأصيب بغدة أمرضته، فلجأ إلى أحد بيوت بني سلول، وقال متفجعاً: (غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية) (ابن عبد الحق، 1412هـ، ص497). وديار سلول في بيشة، قال ابن عبد الحق: (ثنية الخيمات: نخل لبني سلول، ببطن بيشة) (الحموي، 1995م، ص414). وقال ياقوت: (ولبني سلول ببطن بيشة الخيمات نخل وقد يزرع في بعضها الحب) (الحموي، 1995م، ص61).

8 - عمرو بن معدى كرب: من منحج، عاش مع قومه في جنوب الجزيرة، ومن شعره يذكر رنية: فلما هبطنا بطن رنية بالقنا أرّن سحاب رعه متجاوب (الحموي، 1995م، ص84) وذكر تباله فقال: أغزو رجال بني مازن ببطن تباله أم أرقد. (عمارة، دبت، ص2).

9- الشنفرى: قال أحمد عمارة: (أزدي من أزدي شنوءة التي كان موطنها جبال السراة) (عمارة، دبت، ص47) أحد الفرسان الصعاليك، وقال يذكر بعض المواضع: ويوما بذات الرّأس أو بطن منجل هنالك تلقى القاصي المتغور (عمارة، دبت، ص47).

ووادي منجل ما زال يعرف باسمه إلى اليوم، ويقع شرق بلدة المخواة التي تتبع لمنطقة الباحة

10 - **السليك بن السلكة**: السليك بن عمرو، من تميم، تؤكد قصائده على أنه عاش في جنوب الجزيرة، كقوله:

أمعتني ريب المـنـون ولم أـرـع عـصـافـير وادٍ بـين جـاش ومـأرب (عمارة، دبت، ص64)

ويكرر ذكر المواضع الجنوبية في نص آخر إذ يقول: لختعم إن بقيت وإن أبوه أوار بين بيشة أو جفار (الضناوي، 1994م، ص77).

11 - **الأفوه الأودي**: من منجج، عاش مع قومه في جنوب الجزيرة، يقول الأفوه ذاكرة بعض مواطن قومه:

تركنا الأزد يبرق عارضاًها ... على ثجر فدارات النصاب

قال الباحث: ثجر بلدة تقع إلى الشمال الشرقي من نجران، وتبعد عنها بحوالي 100 كيل.

12 - **سلامة بن جندل التميمي**: قال يذكر سكنى قبيلته في تثليث:

سأهدي وإن كنا بتثليث مدحة إليك وإن حلت بيوتك لعلعا (الجاحظ، 1423هـ، ص210) قال ياقوت: "فدلّ قوله أن تثليث من ديار بني تميم" (البكري، 1403هـ، ص304).

13 - **قس بن ساعدة**: عاش مع قومه بني إياد في نجران، قال الربيعي: (فإن إيادا بعد خروجها من تهامة نزلت وادي بيشة) (الربيعي، 1974هـ، ص195) وهو القائل: منع البقاء تغلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي (الربيعي، 1974هـ، ص407)

14 - **حاجز الأزدي**: أحد العدائين الصعاليك، عاش في جنوب الجزيرة، ذكر وادي ترج وهو واد خصيب في بيشة ما زال يعرف باسمه إلى اليوم: ولما أن بدت أعلام ترج وقال الرابيان بدت رثوم (البكري، 1403هـ، ص138) ويذكر تنومة، وهي شمالي مدينة أبها: ويوم صبنا الحي يوم تنومة بملومة بهوى الشجاع ويدها (البكري، 1403هـ، ص250)

15 - **طفيل الغنوي**: يقول عبد الستار فراج عن مساكن قومه: "ومساكن غني وباهلة متجاورة في نجد شرقي الطائف" (فراج، دبت، عدد 817) وقد ذكر طفيل ضلفع فقال: عرفت لليلي بين وقط وضلفع منازل أقوت من مصيف ومربع (البكري، 1403هـ، ص134)

وجبل ضلفع ما زال معروفا باسمه إلى اليوم في رنية.

16 - **عبد يغوث الحارثي**: من بني الحارث بن كعب، قال يذكر ديار قومه في نجران:

فيا راكبا إما عرضت فبلغن نداماي من نجران ألا تلاقيا (البكري، 1403هـ، ص156)

17 - **حميد بن ثور**: من شعره يذكر مواضع وقبائل جنوبية:

إذا شئت غنتني بأجزاء بيثشة إلى النخل من تثليث أو ببببما

وقولا خرجنا تاجرين فأبطأت ركاب تركناها بتثليث قيما (الميمني، 1951م، ص26).

18 - ذو الإصبع العدواني: حرثان بن الحارث، شاعر فارس، ذكر ديار قومه في بقران فيقول:

جلبنا الخيل من بقران قبا ... تجوب الأرض فجأ بعد فجح (شيخو، 1991م، ص625)

وذكر مواضع أخرى منها مرهب، وصعر حيث قال: إن داري بمرهب فبصعر ... فمعمورة فمعمورة فالمرار (الهمداني، 1884م، ص123)

قال البلادي: "صعر هضبة بطرف السر من الشمال، جنوب الطائف، من جلدان" (البلادي، 2010م، ص986).

19 - أنس بن مدرك: خثعمي، وخثعم سكنت منطقة عسير منذ الجاهلية، قال في قتله سليكا: إنني وقتلي سليكا يوم أعقله ... كالثور يضرب لما عافت البقر (الدينوري، 1423، ص356) وقال: تبالة، والعرضان ترج وبيثشة، ... وقومي تيم اللات، والاسم خثعم (الحموي، 1995م، ص21).

20 - عبيد بن الأبرص: من بني أسد، من شعراء الجاهلية الكبار، قال يذكر تبالة:

ألا تقفان اليوم قبل تفرق ... ونأي بعبيد واختلاف وأشغال

إلى طعن يسلكن بين تبالة ... وبين أعالي الخل لاحقة التالي (عدرة، 1994م، ص106).

21- دريد بن الصمة: فارس شاعر جاهلي، عاش مع قبيلته في سراة جشم المجاورة لسراة هذيل، وقد ذكر من مساكنهم العقيق، وهو الآن يحتفظ بالاسم ذاته، ويقع إلى الشرق من مدينة الباحة:

لمن طلل بذات الخمس أمسى عفا بين العقيق فبطن ضرر (عدرة، 1994م، ص115).

وذكر وادي دفاق في قوله: فلو أني أطعت لكان حدي بأهل المرختين إلى دفاق (عدرة، 1994م، ص135).

قال عاتق البلادي: "دُفاق: وادٍ لهذيل يسيل من السراة فيصب في وادي ملكان على 32 كيلاً جنوب مكة" (البلادي، 1980م، ص106).

22- تأبط شراً: عاش مع قومه في تهامة جنوب مكة في وادي يلملم، قتلته هذيل، قال البلادي: "نمار: شعبتان بينهما ربع،

تصب إحداهما شمالاً في دُفاق ثم في ملكان، وتصب الأخرى في الحوية ثم في يلملم، وقيل: قُتل في الحريضة إحدى فروع نمار ... وكل من رخمآن ونمار والحريضة أمكن متجاوزة" (البلادي، 1980م، ص309). وقد ذكر تأبط شراً من ديار قومه هضاض:

إذا خلّفت باطنتي سرار وبطن هضاض حيث غذا الصباح (حرب، 1996م، ص21)

وهضاض ما زال يعرف باسمه إلى اليوم، وفيه مشروع عقبة تربط بلاد بني مالك جنوبي الطائف بمحافظة إضم التي تقع جنوبي مكة، وتبعد عنها بما يقارب 150 كيلاً.

23 - خدّاش بن زهير: شارك ضد قريش في يوم شمطة من حروب الفجار:

فأبلغ إن عرضت بنا هشاما وعبد الله أبلغ والوليدا

بأنا يوم شمطة قد أقمنا ... عمود المجد إن له عمودا (حرب، 1996م، ص146).

24 - صخر الغي: هذلي، عاش مع قبيلته ما بين جبال السراة، وسهول تهامة، ذكر في قصائده نمار، وهو: "بين الحوية،

ودفاق" (البلادي، 1982، ص1768) فقال: سمعت وقد هبطنا من نمار دعاء أبي المثلّم يستغيث. (السكّري، 1995م،

ص262). وقال يصف آثار المطر: فأصبح ما بين وادي القصور حتى يللم حوضا لقيفا (السكّري، 1995م، ص298)

ويللم هو ميقات أهل اليمن، وهو إلى الجنوب من مكة المكرمة.

ب - أثر البيئة الطبيعية في شعر جنوب الجزيرة العربية

وقع كثير من الباحثين في تراث الجزيرة العربية في وهم أنّ بيئتها كانت صحراوية خالصة، وأنّ الجاهليين كانوا يعيشون حياتهم بين حل وترحال، في صحراء قاحلة، سعيا وراء الغيث، وبحثا عن الكلا. ولعلّ مردّ هذا الخطأ يعود إلى أنّ أغلب من كتب عن تلك البيئة كانوا أبعد ما يكون عن معرفتها، فهم لم يعيشوا في الجزيرة العربية، ولم يزورها زيارة المنقّب الباحث، وإنما اكتفوا بالسماع مخطئا عن مخطئ، وواهما عن واهم. وهكذا نقل أولئك الكُتّاب صورة الحياة كما ظنّوها، لا كما عاشها الجاهليون. ولكنّ الحقيقة تقول إنّ جنوب الجزيرة عالية الخصب، ووسطها هضبة تنتج الحبوب، وغربها سهول ساحلية صالحة للعيش، وشرقها مثله ذلك، وشمالها مثل ذلك، وأنّ القبائل استقرت استقرار من طابت له الحياة، فتعاقبت الأجيال منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، وتلك القبائل ما زالت في أماكنها القديمة، لا تجبرها الظروف على التغيير، فمذحج في نجران منذ الجاهلية إلى اليوم، وبنو حنيفة في اليمامة، وثقيف في الطائف، وكنانة في تهامة جنوب مكّة، وبنو عامر في بيشة، وطيء في الجبلين، وعنز في جرش وما حولها، والأزد في السراة، والأوس والخزرج في المدينة، وعبس وذبيان في القصيم، وبنو عبد القيس في البحرين، ومثل ذلك قبائل الجزيرة كلّها، وهكذا لم يكن الجاهليون يحملون أرواحهم على أكفهم، ومتاعهم على دوابهم، متنقلين من إقليم إلى إقليم، ومن حاضر بئس إلى مستقبل مجهول، بل لقد استقرت القبائل في ديار معروفة، تمنحهم ما يحتاجون من مقومات العيش، فإن أجبرتهم الظروف على الرحيل، فإلى مكان قريب، لا يقتل الانتقال إليه مواشيهم، ولا ضعفاءهم.

ولأنّ الشاعر الجاهلي في جنوب الجزيرة مرتبط ببيئته، شديد التعلّق بها، فقد جاء شعره مستفيدا من كلّ ما وقعت عليه عيناه، حيث يوظّف مشاهداته في شعره، ويستفيد منها في بناء فنّه، وبالتالي كان الشعر ممثلا صادقا لبيئته، ومعبرا عن حياة الجاهلي في جوانب متعددة، تتعلّق بالبيئة حيناً، وبالنشاط الإنساني حيناً، ولحسن حظّ الدراسات الأدبية فقد شغف شعراء جنوب الجزيرة في العصر الجاهلي بكل ما يتعلّق ببيئة الطبيعة من حولهم، وتفاعلوا مع الحالات التي تشكّل المكان أو تعناده، فحفظوا بذلك الكثير من الإشارات عن محيطهم لولا الشعر لما حفظ. فهم -مثلا - حين يتحدثون عن الأيام الماطرة يستعذبون تناول التفاصيل فيها، فيأخذون في وصف بشائر الغيث، ثم طريقة تراكم السحاب، ثم يرسمون أجمل الصور للمطر حين نزوله، ويتتبعون آثاره بعد أن يكوّن السيول، ومن ثم يصفون المواطن التي غشيتها تلك السيول، وهم في ذلك إنّما يعبرون عن ارتياحهم النفسي بالتوسّع في تفاصيل ترضي شغفهم، وتصور تفاعلهم مع محيطهم. ونجد ارتباط الجاهلي ببيئته في التقاطه لأدق تفاصيل محيطه، إلى درجة أن يذكر امرؤ القيس بعزّ الطباء المتناثر على الأرض في معرض حديثه عن أسفه لرحيل محبوبته،

مع أنه غير متعلق بمحبوبته، ولا هو من البروز بحيث يلتفت انتباه الناس، بل إن امرأ القيس يذهب إلى أبعد من ذلك فيبين مواضعه، ويدقق في نقله لصفته: ترى بحر الأرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبّ فلفل (عبد الشافي، 2004م، ص111) ويتفاعل شعراء جنوب الجزيرة كثيرا مع المطر، فهو متربّع على عروش أوصافهم، يراقبون حركة السحب، ويستمتعون بلمع البرق، ثم يتنبعون مواقع القطر، ومدارج السيول يقول عبيد بن الأبرص:

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه من عارض كيباض الصبح لَمَاح
دان مسفّ فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنّ ريقه لَمّا علا شطبا أقراب أبلق ينفى الخيل رَمَاح
كأنّما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح
كأنّ فيه عشارا جلة شرفا شعنا لهاميم قد همت بإرشاح
بُحا حناجرها هدلا مشافرها تسيم أولادها في قرقر ضاحي
هبت جنوبّ بأولاه ومال به أعجاز مزن يسحّ الماء دَلاح

فأصبح الروض والقيعان مرعة من بين مرتفق فيه ومنطاح (الجاسم، 1997م، ص45)

فعبيد يصف بدقة تفاصيل المشهد، وهو مؤثر على قربها من نفسه المعقّلة بالبيئة. ويحرص عبيد على نقل المشهد كاملا، بما في ذلك لون السحاب، فهو سحاب أبيض يشبه الصبح، ويشبه خاصرة الحصان الأبلق ساعة جريه، وكيف أنّ الريح تسير ذلك السحاب، حتى انتهى به المطاف مطرا امتلأت به القيعان. وللطبيعة تأثير لا يكاد يحدّ في حياة الجاهلي، وتكاد تكون العنصر الأهمّ في حياته، فهي حاضنته الأولى، ومجال حركته، وتأثيرها على معيشته غير محدود. ولقد بلغ من تأثير الطبيعة في حياة الجاهلي أنها كانت تقرر رحيله، أو بقاءه، فالسائح من الطير يبهجه، ويقوّي عزمه، والبارح منها يحزنه، ويرجعه عن قصده، ولشدة تعلقهم بالبيئة يسمّون أبناءهم بأسماء مكوناتها الطبيعية، كالأسد، والثعلب، والضب، والكلب، والغراب، والطلح، والسمر، وغيرها. والشاعر الجاهلي الجنوبي وقّاف على الأطلال، متأثر لخرابها. ويظهر ارتباط الجاهلي بالحياة الطبيعية في استقصاء طرفة بن العبد لأوصاف ناقته، على أنّ استقصاء تلك الأوصاف لا تخدم الغرض الرئيسي في قصيدته، لكنها تبرز علاقته بناقته، فهو يراها كاملة الأوصاف، جديرة بالاسترسال في الحديث عنها:

واني لأمضي عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

أمون كألوالح الإران نصأتها على لاحب كأنه ظهر بوجد (ناصر الدين، 2002م، ص28)

فكان نصيب الناقة ما يقرب من ثلاثين بيتا من قصيدته، لم يترك شيئا في الناقة لم يصفه، حتى وصل به الحال إلى وصف قوة سمعها، وطريقة مشبها. بل إنّ مظاهر الطبيعة تسيطر على القصيدة كلّها في بعض الأحيان، فهذا امرؤ القيس يتحدث عن طول الليل فيلنقت إلى أركان الطبيعة من حوله، فيصوّر النجوم مشدودات بالحبال إلى الجبال،

وحركة الليل البطيئة كالناقة الضخمة الهادئة، وعن لمع البرق في حدته وخفوته، وعن موقعه الذي رصد منه ذلك البرق على الرغم من انتفاء الحاجة لبيان كثير من تلك التفصيلات، ولكنها الرغبة في الحديث عن الحبيبة / الطبيعة، ويحدثنا عن المواضيع التي أصابها ذلك المطر، ثم يصف كيف تكوّنت السيول، ثم يسمي الأماكن التي تحركت من خلالها، ويصور منظر السيل حين يلتف حول الجبال، وهكذا يستمر في تصوير الطبيعة من حوله، فيذكر لنا أنه ارتقى قمة تشبه رأس الرمح، ويتحدث عن حصانه الذي أصابه المطر فيصف شيئاً من هيئته، ويصف مشيته. ويستمر امرؤ القيس في اصطحاب الطبيعة من حوله، فإذا به ينتقل فجأة إلى ذكر جدوله اليومي في أيام أخرى، غير يوم المطر هذا، ولكن الطبيعة لا تفارقه وهو يتحدث عنه، فهو حين يصف خروجه المبكر جدا لا ينسى أن يقارن ذلك الغدو بغدو الطير، ثم يحرص على أن يبين على أنه اصطحاب حصانه في ذلك الغدو، كل ذلك من أجل أن يتيح لنفسه فرصة وصف ذلك الحصان، وبعد أن يشبع رغبته في الحديث عن حصانه يلتفت مرة أخرى إلى ما حوله من المكونات فيدون شيئاً عن الوحش الذي يلقاه في الطريق. وهكذا تمضي قصيدة امرئ القيس مليئة بالمظاهر الطبيعية، لا يكاد يغفل عن شيء مما تقع عليه عينه:

أعني على برق أراه وميض بيضيه حبيبا في شمرايح بيض

ويهدأ تارات سناه وتارة ينوء كتغاب الكسير المهيبض

وتخرج منه لامعات كأنها أكف نلقى الفوز عند المفيض

فعدت له وصحبتني بين ضارج وبين تلاع يثلث فالعريض

أصاب قطاتين فسال لواههما فوادي البدي فانتحي للأريض

فأضحى يسح الماء عن كل فيقة يحوز الضباب في صفاصف بيض

فظلت وظل الجون عندي بلبده كأنني أعدي عن جناح مهيبض

وقد أغندي والطير في وكناتها بمنجرد عبل اليدين فيبيض

له قصر يا عير وساقا نعامه كفحل الهجان ينتحي للعضيض

يجم على الساقين بعد كلاله جموم عيون الحسي بعد المخييض

ذعرت بها سرباً نقياً جلوده كما دعر السرحان جنب الربيض (عبد الشافي، 2004م، ص95).

ويؤكد ما ساقته الدراسة عن تعلق الجاهلي بالطبيعة، حرص عبيد بن الأبرص على حشد مظاهر الطبيعة في وصفه لدموعه، فيورد أربعة أنواع من تلك المظاهر ليشبه الدموع بها، بينما كانت تكفيه واحدة منها، فهو يشبه دموعه بالماء المتسرب من القرية الواهية، ثم لا يكتفي بذلك، بل يؤكد بأن يشبه دموعه بمعين الماء، ثم يحرص على أن يستكمل صورة ذلك المعين فيختار معينا ينحط من مكان مرتفع، ثم لا يشفي غليله ذلك التشبيه فينتقل إلى وصف تلك الدموع بأنها تشبه النهر الصغير، ثم يستحضر مشبها به رابعا فيشبه تلك الدموع بالجدول الذي ينساب في ظلال النخيل:

عينك دمعها سرور كأن شأنيهما غروب

واهية أو معين ممعن من هضبة دونها لهوب

أو فلج ماء بيطن واد للماء من تحته قسيب

أو جدول في ظلال نخل للماء من تحته سكوب (عدرة، 1994م، ص20)

والمثلي لأبيات عبيد يعلم أنّ الصورة تكتمل بواحد من تلك التشبيهات، ولكنّ تعلق الجاهلي بالطبيعة يجعله يتلذذ بالحديث عنها، فلا عجب أن يكثر الجاهليون من الانغماس في تلك اللذة. وهذا الاسترسال في استلهاط الطبيعة بمظاهرها المختلفة يبدو صفة عامة في شعراء جنوب الجزيرة، فهذا حاجز الأزدي يصف سرعة جريه، فلا يكتفي بتشبيهه نفسه بالغزال، وقد كان ذلك يكفيه للتدليل على سرعته الفائقة، وإنما يندمج في الطبيعة ويتعمق، ليثبه سرعته بالأرنب تارة، ثم يعود إلى الظباء فيثبه سرعته بسرعة أنثى الغزلان تارة أخرى: وكأنما تبع الفوارس أرنبا أو ظبي رابية خفافاً أشعبا

وكانما طردوا بجنبي عاقِلٍ صدعا من الأروى أحسّ مكأبا (خليفة، 1959، ص223)

فلا شيء يضيفه إكثار حاجز الأزدي من أنواع المشبه به، إلا رغبته في نقل صور الطبيعة من حوله.

وشعراء جنوب الجزيرة يميلون إلى تعداد الأماكن، وكأنّ لكل منها حقاً عليهم لا يريدون أن يبخسوه، فالشاعر ثعلبة بن غيلان يريد الحديث عن اشتياقه وناقته إلى المعتمس، فيبدأ برسم الطريق الذي سينتقل عبره ذلك الشوق ليصل إلى ذلك المكان، فهو سيمرّ على مواضع منها الجريب، وراكس، ثم حين يتمنى المكان لا يكتفي بذكره مجرداً، بل يشمل في الامنيات الجبال، والطير، والوحش: تحن إلى أرض المعتمس ناقتي ومن دونها ظهر الجريب وراكس

فيا حبذا أعلام بيثة واللولى ويا حبذا أجسامها والجوارس (البكري، 1403هـ، ص76)

ويؤكد أوس بن حجر التلازم الوثيق بين الجاهلي ومحيطه المكاني، فيحشد ثلاثة عشر موضعاً في ثلاثة أبيات:

تنكر بعدي من أميمة صائف فبرك فاعلى تولب فالمخالف

فقو فرهبي فالسليل فعاذب مطافيل عوذ الوحش فيها عواطف

فبطن السلي فالسخال تعذرت فمعلقة إلى مطار فواحف (نجم، 1979م، ص63).

ويؤكد عمرو بن معدي كرب الزبيدي هذا التعلق بالمكان، فيحشد في بيتين أسماء ثمانية مواضع:

يسير بين خطم اللوذ عمرو فلوذ القارتين إلى برام

فصفح حبونن فخليف صفح فنخل إلى رنين إلى بشام (الطرابيشي، 1985م ص163).

ويرسم حاجز الأزدي خريطة واضحة للمكان الذي قصده، فجبال ترج أمامه، والجبال السود خلفه، وجبال جندف والبهيم عن شماله، وهو احتفاء واضح بالمكان جعله يصرّ على إيراد كلّ ما يمكنه من المعالم:

ولمّا أن بدت أعلامُ ترج وقال الرابئان بدت رنؤم

وأعرضت الجبال السود خلفي وجندف عن شمالي والبهيم (البكري، 1403، ص138).

ج - القيم الإنسانية في شعر جنوب الجزيرة العربية

1 – الدين: مارس الجاهليون في جنوب الجزيرة العربية ما مارسه أقرانهم في بيئات الجزيرة الأخرى من طقوس دينية، وبعثوا – كغيرهم – رسائل شعرية تتعلق باعتقاداتهم الدينية، التي تراوحت بين الالتجاء إلى الله سبحانه، ودعاء الآلهة الأخرى التي اتخذوها لتقربهم إلى الله بزعمهم، وقد ورد ذكر الله في شعر شعراء جنوب الجزيرة، تارة لا يذكر معه غيره، وتارة تذكر معه آلهة أخرى، وتارة يذكر الله وتذكر معه الآلهة الأخرى، ولكن مع إيضاح أنّ الله سبحانه أعزّ وأعلى، وأصدق، وأعظم. ومن الملاحظ أنّ تبعية عرب جنوب الجزيرة لتلك الأصنام لم تكن تمنعهم من اتخاذ قراراتهم الشخصية، وخاصّة إذا جاءت نتيجة الاستقسام مخالفة لما يريدون، ومن أمثلة ذلك قصة امرئ القيس وذي الخصة، حيث عصى الشاعر صنمه وقال:

لو كنت يا ذا الخلس الموتورا مثلي وكان شيخك المقبوراً

لم تنه عن قتل العداة زورا (الجندي، 1991م، ص71).

فامرؤ القيس لا يكتفي بالعصيان، بل يصرّح بأنّ صنمه كاذب، وباطل. ويقول: والله أنجح ما طلبت به والبرّ خير حقيبة الرّحل (عبد الشافي، 2004م، ص131) فهذه إشارات لا لبس فيها إلى بقاء شيء من العقيدة الصحيحة في نفوس جاهليي جنوب الجزيرة. كذلك يظهر تعظيمهم للبيت الحرام في مثل قول خدّاش بن زهير: كذبتم وبيت الله حتى تعالجوا ... قوادم حرب لا تلين ولا تمرى (القرشي، دت، ص415).

ونرى من زاوية أخرى أنّ الإشراف بالله لدى بعضهم كان واضحاً لا لبس فيه، فهذا أوس بن حجر يشرك بالله اللات والعزى، مع يقينه بأنّ الله أكبر منها، ولكنّها الروح الجاهلية التي انحرفت عن توحيد الله جلّ وعلا:

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إنّ الله منهّن أكبر (نجم، 1979م، ص36)

2: المرأة: للمرأة مكانة رفيعة تبوّأتها في الشعر الجاهلي الجنوبي، فكانت رفيقة القصيدة الجاهلية، مهما كان الغرض من تلك القصيدة، فهي في مقدمة قصائد الغزل وهذا مستساغ، مستحسن، ولكنّ الغريب أنّها تسيطر تماماً على مقدمات القصائد في الأغراض التي لا يناسبها الغزل، فهي تتصدّر قصائد الفخر، والهجاء، والاعتذار، والطلب، والوصف، وغيرها.

وكأنّ هناك قانوناً لا يسمح للجاهلي بالحديث عن غرضه إلا بعد أن يشبّب بالمرأة، ويتحدث عن ديارها، وألمه لفراقها، وغير ذلك من أصناف العلاقات بينه وبين محبوبته. ولا يكون الحديث عن المرأة حديثاً عابراً،

بل إن المرأة في الشعر الجاهلي تُمنح أقصى درجات الاهتمام، ولذا فالشاعر الجاهلي يستدعي أعرق خيالاته من أجل أن يخرج لنا صورة المرأة التي حوت كلّ أوصاف الجمال، فهي تشبه من كلّ شيء جميل أجمل ما فيه، فلو وجد الشاعر شيئاً أجمل من عيون الطباء البرية لاستلهمه، ومع علمه بأنّ عيون الطباء جميلة، فإنّه يبحث في عيون الطباء ذاتها عن أجمل حالاتها، فيجد أنّ الطيبة التي تراعي صغيرها تكون النظرة في عينها أرقّ ما تكون، فيذهب إلى تخصيص العام، وانتقاء خاصّ الخاص، يقول امرؤ القيس: تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بنظرة من وحش وجرة مُطْفَل (عبد الشافي، 2004م، ص115).

والشاعر الجاهلي دقيقٌ في انتقاء صورته، مهتمٌّ بأدقّ تفاصيلها، حريص على ألا يدع زاوية يمكن أن تضيف إلى صورته إلا طرقها، كلّ ذلك من أجل أن يظهر موصوفه في أجمل صورة، دون أن يترك في النفس حاجة للاستزادة، فامرؤ القيس حين يصف المرأة بالبياض لا يكتفي بذلك، وكأنّه يقول لنا إنّه يعلم أنّ ليس كلّ بياض جميلاً، لذا يسعى إلى إيصال مراده بدقة، فالبياض مشرّب بصفرة تزيده جمالاً: كبكر المقانة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلّل (عبد الشافي، 2004م، ص116).

والأمر يتكرر لدى طرفة بن العبد، فهو حين يصف ثغر محبوبته لا يكتفي بالحديث عن بياضه، بل يحرص على أن يستقصي معاني الجمال فيه، فهو كنبات الأقحوان الذي تفتح زهره، وهو أقحوان نبت في رمل صاف لم تداخله العيوب، ونادٍ لم يؤذه الجفاف: وتبسم عن ألى كأنّ منورا تخلّل حرّ الرمل دعص له ندي (ناصر الدين، 2002م، ص20). ولمكانة المرأة في نفوس الرجال، ولحرصهم عليها، وعنايتهم بها، ولكونها الشرف الذين عنه يذودون، وفي سبيله يموتون، يكثر أن تفاخروا بقدرتهم على حماية نساءهم، فهنّ المنيعات اللاني لا يصل إليهن الغزاة، يقول الأفوه الأودي:

نقاتل أقواماً فنسي نساءهم ولم يرَ ذو عزّ لنسوتنا ججلا (التونجي، 1998م، ص100).

فإنّ سبيت المرأة فتلك سبة الدهر، ومناطق القهر، وهو ما عاشه عمرو بن معدي كرب حين سبيت أخته ربحانة:

أمن ربحانة الداعي السميع يؤرّقني وأصحابي هجوع

سباها الصمة الجشمي غصباً كأنّ بياض غرّتها صديع (الطرايبشي، 1985م، ص140)

3 - الحرب: لا يمكن الحديث عن الشعر الجاهلي دون الحديث عن الحروب، فهو عصر قام في أغلبه على الغزو والإغارة، وتمكّن منه السلوك العدائي تجاه الآخرين. وللحرب في الجاهلية دواع كثيرة، يهمنها منها ما منحت للشعر الجاهلي في جنوب الجزيرة من مساحات للتعبير، وما خلّعت على الشاعر الجاهلي من حلال الثناء، إذ يدافع عن قبيلته ويهاجم أعداءها. والخيل أحد أركان القوّة ورمز السطوة، ولذلك فهي أثيرة عندهم، ويحدثونها محادثة الأصدقاء، فهذا عامر بن الطفيل يتحدث إلى حصانه المزنوق، يحضّه، ويتواصل معه: إذا ازورّ من وقع السّلاح زجرته وقلت له: اربع مقبلا غير مدبر (البستاني، 1979م، ص61)

وأيامهم مقسومة بين الحرب ولقاء الصحب في المجالس، فليست أيام الدعة والرخاء بأولى من أيام الحرب بالاهتمام، والجاهلي ينهض إلى الحروب نهوضه لشؤون حياته اليومية، وكان الحرب إحدى المهام التي لا تطيب الحياة إلا بها، يقول سلامة بن جندل: يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب (الأحول، 1994م، ص12).

وللحرب اتخذوا أنواع العدة والعتاد، واستعدوا بأنواع الأسلحة، واستعانوا بما استطاعوا من أسباب الاستعداد لخوض غمار الحروب، نصيرهم حصان أصيل، وسيف صقيل، ورمح طويل، ودرع سابغة، يقول عامر بن الطفيل:

فما أدرك الأوتار مثل محقق بأجرد طاو كالعسيب المشذب

4 - **الارتحال والغربة:** صحيح أنّ جزءاً من أبناء القبائل العربية كانت تقوم حياتهم على الرعي، إذ تكون أغلب أموالهم الماشية التي تحتاج إلى مرعى وماء، ولكنّ الفكرة القديمة عن ترحال الجاهلي من إقليم إلى إقليم ليست - في نظر الباحث - صحيحة، إذ إنّ الارتحال لا يكون غالباً إلا في سبيل البحث عن الماء، والكلاء، وهذا يعني أن الجاهلي سيحرص في البدء على أن تكون إقامته في إقليم يؤمن ذلك في أغلب العام إن لم يكن كلّه، ومن جهة أخرى فإن مغبة الارتحال البعيد لا تسمح للجاهلي بالتنقل متى شاء، وحيث شاء، والصحيح - في نظر الباحث - أن القبيلة كانت ترحل بين مناطق الخصب والجذب، ولكن في محيط الإقليم الواحد، كأن تنتقل قبيلة من سراة جنوب الجزيرة إلى تهامتها، أو من تهامتها إلى سراتها. والغزو من أسباب الارتحال، وهو ارتحال جزئي، ينتهي بانتهاء غرضه، وهو هنا مظنة فخر واعتزاز، يقول تأبط شرا:

يظل بمؤامة ويؤمسي بغيرها جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك

ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي بمنخرق من شدة المتدارك (الفارسي، دت، ص99).

وقد تكون الغربة لحكم بالنفي يجري إصداره على القبيلة أو بعضها، مثلما حدث لقوم لبيد الأديين حين تم نفيهم إلى نجران، وفي هذا يقول لبيد: أبنى كلاب كيف تنفى جعفر وبنو ضبينة حاضروا الأحباب (طماس، 2004م، ص14).

وهناك ارتحال لطلب الدفء، أو هرباً من الحرّ، فينتقلون في الشتاء إلى أماكن يعودون منها في الصيف، يقول لبيد:

تربعت الأشراف، ثم تصيقت حساء البطاح، وانتجعن المسايلا (طماس، 2004م، ص135).

5 - **مكارم الأخلاق:** أجبر أسلوب الحياة الجاهلية الجاهليين على التحلي بالفضائل، فإكرام الضيف ضرورة بقدر ما هو مفخرة، فلا شيء بين يدي المسافر الجاهلي من مأكّل إلا ما يجود به عليه القاطنون في طريقه، والقاطن الذي أكرم المجتاز سيكون غداً مسافراً يتمنى أن يلقي قاطناً يكرمه، فالحاجة والانقطاع في الطرق أسساً لثقافة تعاونية رفيعة الشأن. ومثل ذلك الشجاعة، فالحياة التي يعيشها الجاهلي أجبرته على اكتساب تلك الصفة، فالخوف على النفس، والمال، والولد يدفع إلى تعزيز قدرات الدفاع عنها، والرغبة في الحياة، وجلب القوت، وسلب الآخرين أموالهم، بحاجة - كذلك - إلى قوة، وشجاعة.

والدليل على أنّ الأخلاق تتبع الضرورة، أنّ الجاهلي الذي يكرم الغريب، ويجير المطارّد، هو ذاته الذي يعتبر ابنه الذي من صلبه عبداً، ولا يمنحه شيئاً من الحقوق إن كانت أمه سيّبة، أو سوداء. ومن الفضائل التي تغنى الجاهلي بها كثراً الشجاعة، وحماية الحمى يقول عامر بن الطفيل:

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله أن أسمو بأب ولا أب

ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب (البستاني، 1979م، ص13).

ومنها الكرم، وطهارة النفس، وهي الفضائل التي يفخر ذو الإصبع العدوانى بأنه قضى حياته محافظاً عليها:

ولا أروم الفتاة رؤيتها إن نام عنها الحليل أو شسعا

إن تزعمأ أنني كبرت فلم ألف بخيلا نكسا ولا ورعا (العدواني، دت، ص59).

وعفة النفس من الخصال الحميدة التي تغنى بها الجاهليون وإن جاعوا، وإن افتقروا، يقول الشنفرى:

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

واستف ترب الأرض كيلا يرى له علي من الطول امرؤ متطول (يعقوب، 1996م، ص62).

ومن العفة حفظ اللسان من الوقوع في الأعراض، ومن فاحش القول، يقول ذو الإصبع:

ولا لساني على الأذى بمنطلق بالفاحشات ولا فتكي بمأمون (العدواني، دت، ص94).

د . السرد القصصي في شعر جنوب الجزيرة في العصر الجاهلي

أظهر شعراء جنوب الجزيرة عناية فائقة بالسرد القصصي، ولعلّ مردّد ذلك إلى خلو حياة الجاهليين من المشتتات، وتمتعهم بفسحة من الوقت لا يجدون فيها اضطراباً لممارسة الأعمال، فيحلو الحديث، ويطول. فالزرع له مواسم، والرعي يكون فيه النهار طويلاً، والليل حلوا للسمر. والحرب تأخذ من سنتهم أياماً قليلة. كلّ ذلك منح الشاعر الجاهلي فسحة من الوقت لترتيب أفكاره، ولجمع مقطوعاته، وربط أجزاءها. فقلّ أن يجد الدارس قصيدة طويلة لا تحمل هذا النوع من التصوير المحيط بالأشياء. يستوي أن يكون الشعر في الفخر، أو الغزل، أو الرثاء، أو أيّ غرض آخر. فالشنفرى - مثلاً - يصور إحدى غزواته فيبدأ بتصوير ليلته الباردة، ولكّنه كان نشيطاً للإغارة، حريصاً عليها، فقتل من قصد إلى قتله، ثم عاد وما زال الليل في عبوسه، وأصبح أعداؤه يتساءلون عن ذلك الطارق، في تفصيل المستمتع بالحديث:

وليلة نحس يصطلي القوس ربها وأقطع اللائي بها يتنبل

دعست على غطش وبغش وصحبي سعار وإرزيز ووجر وأفكل

فأيمت نسواناً وأيتمت إدة وعدت كما أبدأت والليل أليل

وأصبح عني بالغميصاء جالسا فريقان: مسؤول وآخر يسأل

فقالوا: لقد هرت بليل كلابنا فقلنا: أذنب عس أم عس فرعل

فلم يك إلا نبأة ثم هومت فقلنا: قطة ريع أم ريع أجدل

فإن يك من جنّ فأبرح طارقاً وإن يك إنسا ما كها الأنس يفعل (يعقوب، 1996م، ص70)

والنابغة الجعدي يسرد في غير تعجّل قصة بقرة وحشية أكل الذنب صغيرها، فيصوّر حزنها، ثم يقص لقائها بذكر البقر الوحشية، فيسرد قصة المطاردة الدامية ثم ياس الفحل منها:

كناشطةٍ من وحش حومل حرّة أنامت لدى الدينين بالفاف جوذرا
رأى حيث أمسى أطلس اللون بانسا حريصا تسمّيه الشياطينُ نهسرا
فبات يذكيه بغير حديدة أخو قنص يمسي ويصبح مفطرا
فلاقت بيانا عند أحدث معهد إهابا ومعبوطا من الجوف أحمررا
وخدا كبر قوع الفتاة ملّمع وروقين لمّا يعدوا أن تقشّرا
فلمّا سقاها اليأس وارتدّ لبّها إليها ولم يترك لها متذكّرا
فطافت ثلاثا بين يوم وليلة وكان النكير أن تضيف وتجأرا
فباتت كأنّ بطنها طيّ ربطة إلى نعيج من ضائن الرمل أعفرا
يزلّ الندى عن مدربيها كأنّه جمان جرى في سلكه فتحدّرا
فهايجها حمش القوائم سابح رعى بجواء الجنّ بالصيف أشهررا
أتيح لها من أرضه وسمائه فلّمّا رآها مطلع الشمس بربررا
كبريرة الروميّ أوجع ظهره على غير جرم فاستضاف لينصرا
فلّمّا رآها كانت الهّمّ والهوى ولم ير غمّا عندها متغيّرا
فكان إليها كالذي إصطاد بكرّها شقاقا وبغضا أو أطمّ وأهجرا
وجالت بها روح خفاف كأنّها خذاريّف تُذري ساطع اللون أكدررا
كأصداف هندبين زبّ لحاهما بدارين بيتاعان مسكا وعنبررا
فلّمّا رأى أن لم يصادف فؤادها وكان النكاح خيرُهُ ما تبيّسّرا
كسا جذبُ رجليها صفيحةً وجهه وروقيه ربعي الخزامى المنوّرا

بمرج كسا القرين ظاهر ليطنها جسادا من القرّاص أحوى وأصفرا (الصمد، 1998م، ص59).

الخاتمة:

تصوّب الدراسة الحالية الدراسات التي تحدثت عن الجزيرة العربية وأهلها، معتمدة على الدراسة الميدانية للمكان، والتحليل العقلي للآثار، وأفادت الدراسة من المعطيات البيئية، والمظاهر الجغرافية، والمرويات الشعرية من أجل إيضاح الحقائق المتعلقة بتلك الحياة، وتلك الأماكن. وبيّنت الدراسة أسباب اضطراب المؤلفين القدماء في شأن الجاهلية في مسائل تحديد الأقاليم التي استوطنتها القبائل الجاهلية، وعاش فيها الشعراء، وصوّبت خطأ من قال إنّ الجاهليين عاشوا في صحراء قاحلة، وأنّ حياتهم كانت بين يدي القحط والجذب. وأثبتت الدراسة أنّ الجاهليين تركّزوا في أقاليم غير صحراوية، كانت كافية لعيشهم، وركّزت الدراسة على جنوب الجزيرة الذي يحتلّ مساحة واسعة، تقدر بما يقترّب من 300 ألف كيل مربع، وهي منطقة تمتاز بتنوع جغرافي، وتباين نباتي، تسهل معه الحياة جداً للجاهليين، وصحّحت الدراسة مسمى اليمن الذي درج القدماء على إطلاقه على كل ما كان جنوب مكة المكرمة، وظنّ المتأخرون أنّه اليمن الحالية، فبنوا على ذلك مؤلفاتهم، وقد اعتمدت الدراسة في تصحيح نسبة اليمن على أكثر الأخبار موثوقية، وعلى ما ثبت عند القدماء والمحدثين من مساكن القبائل الجاهلية التي كان يطلق عليهم أهل اليمن في ذلك الوقت، وصحّحت الدراسة المعلومات المتناقلة عن إقليم نجد، معتمدة على ما ورد في الشعر الجاهلي، والمصادر القديمة، من ذكر لحالات الطقس، وأسماء الأماكن، وأنواع النباتات، وأعدت الدراسة القبائل الجاهلية التي سكنت جنوب الجزيرة إلى مواطنها الحقيقية، والشعراء الجاهليين إلى مساكنهم الصحيحة، وكذلك المعارك، والأعلام. ثم تحدثت الدراسة عن أساليب الحياة التي عاشها الجاهليون في جنوب الجزيرة، وشيء من المعالم الفنية في شعر جنوب الجزيرة في العصر الجاهلي.

المصادر والمراجع.

- البكري، عبد الله بن عبد العزيز، (1403) هـ، معجم ما استعجم، ط3، عالم الكتب، بيروت
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (1988م)، ديوان المبتدأ والخير، ط2، دار الفكر، بيروت،
- ابن خرداذبه، عبيد الله بن عبد الله، (1889م)، المسالك والممالك، د ط، دار صادر، بيروت
- الجبر، خالد عبد الرؤوف، (2003م)، الصمّة بن عبد الله القشيري حياته وشعره، ط1، جامعة البترا، الأردن،
- ناصر الدين، مهدي محمد، (2002م)، ديوان طرفة بن العبد، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت
- جامعة الملك سعود، الجمعية الجغرافية السعودية <http://saudigs.org>
- الدارقطني، علي بن عمر، (1986م)، المؤلف والمختلف، دار الغرب، بيروت، د ط
- الصحاري، سلمة بن مسلم، (2006)، الأنساب، ط4، وزارة التراث القومي، عُمان،
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، (1995م)، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت،
- العظمة، مروان، (1994م)، ديوان الحارث بن حلزة، ط1، دار الإمام النووي، دمشق
- الراشد، محمد، والعنيزان، عبد الله، (2012م)، أطلس أسماء الأماكن في الشعر العربي، ط1، مكتبة الملك فهد، الرياض
- شيخو، لويس، (1991م)، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط4، دار المشرق بيروت
- الهمداني، الحسن بن أحمد، (1884م)، صفة جزيرة العرب، د ط، مطبعة بريل، ليدن

- الدينوري، ابن قتيبة، (1423هـ)، الشعر والشعراء، د ط، دار الحديث، القاهرة
- الجاحظ، عمرو بن بحر، (1423هـ)، البيان والتبيين، د ط، دار ومكتبة الهلال، بيروت
- البلادي، عاتق بن غيث، (1980م)، معالم مكة التاريخية والأثرية، ط1، دار مكة للنشر
- علي، جواد، (2001م)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط4، دار الساقى، بيروت
- كحالة، عمر بن رضا، (1994م)، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط7، مؤسسة الرسالة، بيروت
- الياسين، عبد العزيز بن مساعد، (2005م)، قبيلة بجيلة نسبها، أخبارها، بطونها، وفروعها، د ط، دار المعرفة، الكويت
- العمري، أحمد بن يحيى، (1423م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، (1985م)، الإنباه على قبائل الرواة، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت
- الفاسي، محمد بن أحمد، (2000م)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط1، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (2003م)، البداية والنهاية، ط1، دار هجر للطباعة والنشر، السعودية
- ابن الأثير، علي بن محمد، (1997م)، الكامل في التاريخ، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت
- الصمد، واضح، (1998م)، ديوان النابغة الجعدي، ط1، دار صادر بيروت
- الجاحظ، عمرو بن بحر، (1423هـ)، البيان والتبيين، د ط، دار ومكتبة الهلال، بيروت
- نجم، محمد يوسف، (1979م)، ديوان أوس بن حجر، ط3، دار صادر، بيروت
- ابن عبد الحق، عبد المؤمن، (1412هـ)، مرصد الاطلاع، دار الجيل، بيروت
- حرب، طلال، د ت، شرح ديوان مهلهل بن ربيعة، د ط، الدار العالمية، القاهرة
- البستاني، كرم، (1979م)، ديوان عامر بن الطفيل، ط1، دار صادر بيروت
- التنوخي، المحسن بن علي، (1978م)، الفرج بعد الشدة، د ط، دار صادر، بيروت
- عمارة، السيد أحمد، د ت، دراسة في نصوص العصر الجاهلي، د ط، مكتبة المتنبى، الدمام
- الضناوي، سعدي، (1994م)، ديوان السليك بن السلكة، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت
- الربيعي، أحمد، (1974م)، قس بن ساعدة الإيادي حياته، خطبه، شعره، د ط، مطبعة البيان، العراق
- فراج، عبد الستار، القبائل والقراءات، مجلة الرسالة، عدد 817 <https://ar.wikisource.org/>
- الميمني، عبد العزيز، (1951م)، ديوان حميد بن ثور الهلالي، د ط، دار الكتب المصرية، القاهرة
- عدرة، أشرف أحمد، (1994م)، ديوان عبيد بن الأبرص، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت
- السكّري، الحسن بن الحسين، (1995م)، شرح أشعار الهذليين، د ط، دار العروبة، القاهرة
- عبد الشافي، مصطفى، (2004م)، ديوان امرئ القيس الكندي، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت
- الجاسم، أحمد موسى، (1997م)، عبيد بن الأبرص دراسة فنية، ط1، دار الكنوز الأدبية، بيروت
- ناصر الدين، (2002م)، مهدي محمد، ديوان طرفة بن العبد، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت
- خليف، يوسف، (1959م)، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط4، دار المعارف، بيروت
- نجم، محمد يوسف، (1979م)، ديوان أوس بن حجر، ط3، دار صادر، بيروت

- الطرابيشي، مطاع، (1989م)، شعر عمرو بن معدى كرب الزبيدي، ط2، مجمع اللغة العربية، دمشق
- الجندي، علي، (1991م)، في تاريخ الأدب الجاهلي، ط1، مكتبة دار التراث، العراق
- القرشي، أبو زيد، دت، جمهرة أشعار العرب، ط، نهضة مصر للطباعة، القاهرة
- التونجي، محمد، (1998م)، ديوان الأفوه الأودي، ط1، دار صادر، بيروت
- الأحول، محمد بن الحسن، (1994م)، ديوان سلامة بن جندل، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت
- طماس، حمدو، (2004م)، ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ط1، دار المعرفة، بيروت
- العدوانى، عبد الوهاب محمد، دت، ديوان ذى الإصبع العدوانى، ط، مطبعة الجمهور، الموصل
- يعقوب، أميل بديع، (1996م)، ديوان الشنفرى، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v4.43.18